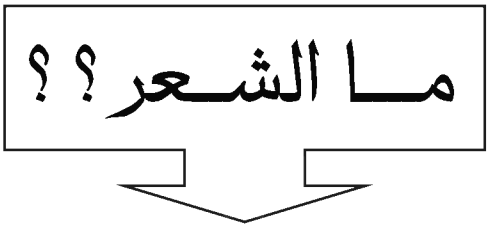
مـــا الشـــعر؟؟

نظريات العلم التي وضعها العلماء فسّرت حقائق الكون وأجابت عن كثير من تساؤل الإنسان عما يحيط به أسرار، هذه النظريات كانت في بدئها مجرد افترُض يضعه العالم، ثم يبرهن على صحته، وبعدها تكتسب النظرية مصداقيتها وثبوتها، وتظل هكذا إلى أن يأتي عالم آخر ويكتشف قصورًا أو يرى تعديلاً في تلك النظرية، وسبب ذلك أن نظريات العلم قابلة للتغير، طالما أقيم الدليل على ذلك؛ فإذا كانت مساحة المربع طول الضلع في نفسه، فهذه حقيقة برهن على صدقها علماء الرياضة من قبل وسارت عليها الأجيال من بعدهم وتظل هذه الحقيقة ثابتة معمولاً بها إلى أن يجيء عالم آخر يثبت عكس ذلك.

وإذا كان نقاد الأدب وعلماء البلاغة قد تعارفوا منذ مئات السنين على أن "الشعر كلام موزون مقفى له معنى" فإن ظروف العصر الحديث، ومالحقه من تغيرات جعل هذا المفهوم محاطًا بكثير من التحفظات خاصة بعد أن تحرر كثير من الشعراء من قيد القافية، وبعد أن تصرف الشعراء في شكل القصيدة ومعماريتها وهندسة بنائها ودخلت أشكال جديدة منها ما يعرف بقصيدة النثر، الأمر الذي غير نظرة المهتمين بالأدب إلى التعريف القديم للشعر، فهذا شاعرنا نزار قباني يرى أن كل ما قيل عن الشعر وتعريفه لا يعدو النظر إلى التجربة من الخارج وأن "كل ما قيل في هذا الموضوع لا يتعدى دراسة مظاهر التجربة الخارجية لا التجربة ذاتها، كما يدرس العالم النفسي نتائج الغضب والانفعال والسرور على جسد الإنسان، وكما يدرس علماء الفيزياء آثار التيار الكهربائي من ضوء وحرارة وحركة، وجميع ما قرأته من نظريات المعنى، والفكرة، والصورة، واللفظ، والخيال، ونسبة كل منها في البيت، إنما تدرس آثار التجربة الشعرية في العالم الخارجي، أي بعد

انتقالها من جبين الشاعر إلى الورق " وشاعر كبير في حجم نزار قباني ، وفي طول قامته الشعرية ليست لديه الشجاعة الكافية لتعريف الشعر ، ويؤكد ذلك بقوله : " لا أجرؤ على تحديد جوهر الشعر .. لأنه يهزأ بالحدود ثم ماذا يضير الشعر إذا لم نجد له تعريفًا ؟ ألسنا نتقبل أكثر الأشياء التي تحيط بنا دون مناقشة ؟ فالروائح والألوان والأصوات التي يسبح كياننا فيها .. تبعث اللذة فينا دون أن نعرف شيئًا عن مادتها وتركيبها . وهل تخسر الوردة شيئًا من فتنتها إذا جهلنا تاريخ حياتها ؟

ثم يسخر نزار قائلاً : " قرأت في طفولتي تعاريف كثيرة للشعر ، و أهزل هذه التعاريف " الشعر هو الكلام الموزون المقفى " ، أليس من المخجل أن يلقن المعلمون العرب تلاميذهم في هذا العصر ، عصر فلق الذرة ، ومراودة القمر مثل هذه الأكذوبة البلهاء .. لأن ما يدور بين الباعة على رصيف الشارع كلام ، والضجة التي ترتفع في سوق البورصة هي مجموعة من الكلام الموزون .. أيضًا ، فهل الشعر عند سادتنا العروضيين هو هذا النوع من الكلام ، دون أن يكون ثمة فرق بين كلام (ممتاز) ، وكلام رخيص " .

ويعترض نزار على التعريف القائل " إن الشعر تصوير للطبيعة " بقوله : " و أنا أقول : إن الفن هو صنع الطبيعة مرة ثانية على صورة أكمل ، نسق أروع ، الطبيعة وحدها فقيرة ، عاجزة ، مقيدة بأبدية القوانين المفروضة عليها : هذه الزهرة تنبت في شهر كذا .. وهذا النبع يتفجر إذا انعقدت السحب مطرًا ، وهذا النوع من العصافير يرحل عن البيادر في أوائل الشتاء ، أما في الفن فإنك تشم رائحة الأعشاب لمجرد تصفحك ديوان ابن زيدون ، و إنك لتستطيع أن تستمع إلى وشوشة الينابيع و أنت أمام الموقد ، تقرأ ما كتب البحتري ، وابن المعتز ، أستطيع في أي موسم أن أغلق نافذتي ، وأمد يدي إلى مكتبي لأنعم بالورد والعطر ، وبزقزقة العصافير المغنية

وهي تتفجر من دواوين المتنبي ، وبودلير ، ديول فيرلين ، و أبي نواس ، وبشار ، فتحيل مخدعي إلى مزرعة يصلي على ترابها الضوء والعبير . الوردة الحمراء على الرابية تموت ، ولكن الوردة المزروعة في قصيدة فلان لا تزال توزع عطرها على الناس وتقطر دمعها على أصابعهم "[1] .

ثم يخلص شاعرنا – بعد أن واتته الشجاعة إلى تعريف الشعر بأنه : (النفس الملحنة) – فهو كهربة جميلة لا تعمر طويلاً ، تكون النفس خلالها بجميع عناصرها من عاطفة ، وخيال ، وذاكرة ، وغريزة ، مسربلة بالموسيقا . ومتى اكتسب الهنيهة الشعرية ريش النغم كان الشعر . لا تعرف هذه الهنيهة الشاعرة موسمًا ولا موعدًا مضروبًا ، فكأنها فوق المواسم والمواعيد . و أنا لا أعرف مهنة يجهل صاحبها ماهيتها أكثر من هذه المهنة التي تغزل النار . . والذي أقرره أن الشعر يصنع نفسه بنفسه ، وينسج ثوبه بيديه وراء ستائر النفس ، حتى إذا تمت له أسباب الوجود ، واكتسى رداء النغم ارتجف أحرفًا تلهث على الورق . . ولقد اقتنعت أن جهدي لا يقدم ولا يؤخر في ميعاد ولادة القصيدة ، فأنا على العكس أعيق الولادة إذا حاولت أن أفعل شيئًا . كم مرة . . ومرة اتخذت لنفسي وضع من يريد أن ينظم ، و ألقيت نفسي في أحضان مقعد وثير ، و أمسكت بالقلم و أحرقت أكثر من لفافة . . فلم يفتح الله عليّ بحرف واحد ، حتى إذا كنت أعبر الطريق بين ألوف العابرين ، أو كنت في حفلة صاخبة من الأصدقاء ، دغدغني ألف خاطر أشقر . . ....وحملتني ألف أرجوحة إلى حيث تفنى المسافات " ويقول : " أعظم تعريف للشعر سمعته من فم طفل في الثانية عشرة كان يحاورني في معرض الكتاب في بيروت " إنني أحبك يا عمو نزار ، لأن شعرك يشبهني " [2] .

١- الأعمال الكاملة ، نزار قباني .
٢- الأعمال الكاملة ، نزار قباني .